

رباعيات الخيام ظاهرة أدبية لكل العصور خمرياته أنموذجاً

الدكتورة المساعدة افتخار عناد اسماعيل
كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

المدخل:

شاعرنا الخيام يفرض علينا، باحثين وقراءً، أن نكون حذرين في التعامل معه، لما يتمتع به من سمات قد لانجد بعضاً منها عند غيره، فهو حادّ المزاج فيما يعبر عنه، صريح في آرائه الى درجة تتخطى الخطوط الحمراء، لا يعترف بشيء اسمه رقابة، ولا يعبا بما يقوله فيه غيره، لا يحتفي بالقيم الروحية والدينية التي جُبل عليها الآخرون، فلا غرو أن تكون رباعياته نمطاً خاصاً من الشعر، تتساق فيها العواطف الإنسانية مع الفكر الفلسفي، لتشكل ظاهرة تجد صداها عند قارئ يتمتع بقابليات خاصة، تمدّها ثقافة موسوعية، تنجرد من الأفكار الضيقة التي تحدّ من حرية التّصوّر والتخيّل لكي يرتقي إلى مستوى الشاعر، بغية أن يهيء لنفسه جواً من الحرية في التلاحم، التي تطرد مع روح الرباعيات.

والشعر بعد ذلك لغة العاطفة ربما يتساوى فيها الشاعر المنشيء مع المتلقي والناقد الذي يمتلك موهبة تضيف على النصّ بعداً جديداً يفتح الطريق أمام غيره في الدلالة على براعة النصّ ومافيه من كشف يمكن أن يضاف الى التراث الإنساني.

واحسب ان مثل هذه الاستنباطات تفرض نفسها علينا حينما نكون امام رباعيات الخيام، لتكون مقدمة يستفيد منها المتلقي الجديد الذي يريد أن يتعرف على هذه الرباعيات وما فيها من أدب طريف يدخلنا الى عالم هذا الرجل الغريب الأطوار، ولكي نكون أكثر إماماً بهذا الرجل، علينا أن نعرف، اللغات التي ترجمت اليها هذه الرباعيات، والمترجمين الذين ترجموا هذه الرباعيات.

لقد ترجمت هذه الرباعيات الى اكثر من ثمانين لغة في العالم، وأن هذا الاهتمام الغريب ماكان يكون لولا أن هذه الأمم وجدت فيها مايجلب اهتمامهم ليكون محل استقطاب يثيّر الى مشتركات انسانية عامة تُلّف عواطفهم وامزجتهم وأفكارهم وتصوراتهم، واولهم في هذا المجال اعلام المستشرقين، وهم أول من لفت انظار العالم الى مافي هذه الرباعيات من تفرّد فني وفكري ينفّث الى كل لغات العالم، وهكذا أشاعوا أسم الخيام ورباعياته التي نظمت بالفارسية اصلاً ونقلوها الى كل انحاء الدنيا، وليس الخيام الا من حصننا نحن العرب والمسلمين لأننا أولى به من غيرنا، ولانه شرقيّ يعدّ مفخرة لكل الشرقيين ولانه مسلم بعد ذلك، وليس غريباً ان يكون الخيام مسلماً بعد كل هذه الصراحة التي لاتألف مع القيم الروحية الاسلامية، ولأن له شعراً في العربية، لغة الاسلام ولغة العرب، بل وكل مؤلفاته الاخرى عربية في لغتها وفي فحواها، لابس أن نمر على بعض أبيات منها لتكون علامة نهتدي من خلالها الى معرفة الخيام ومعرفة آثاره المتنوعة من شعره الذي نظمه باللغة العربية قوله:

تدين لي الدنيا بل السبعة العلى بل الافق الاعلى اذا جاش خاطري

وقوله في قصيدة اخرى:

إذا قنعت نفسي بميسور بلغة يحصلها بالكذ كفي وساعدي
إمنتُ تصاريّف الحوادث كلها فكن يازماني موعدي أو مواعدي

وقوله في قصيدة أخرى:

زجيتُ دهرأً طويلاً في التماس أخٍ يرعى ودادي اذا ذو خلة خانا
فكم ألفت وكم أخيت غير أخٍ وكم تبدلت بالاخوان اخوانا
وقلت للنفس لما عز مطلبها بالله لاتألّفى ما عشت انساناً⁽¹⁾

وغير هذا كثير مما اهتم به الذين وقفوا عند سيرته من المحدثين، لكن الخيام في مثل هذه الابيات لايعبر فيها عن روحيته الا في روح التشاؤم ودم الدنيا. عاش الخيام في زمن السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية بعد انحسار ظل البويهيين سنة 447 هـ اتصل بهم وكان مقرباً فيهم ولا سيما وزيرهم المعروف بـ (نظام الملك) الذي تربطه بالخيام وحسن الصباح رابطة الزمالة والدراسة، هؤلاء الذين تعاهدوا على التزام بعضهم بعضاً حينما يقبل الدهر على

أحد منهم أو يواتيه الحظ ((فلما ارتفع كوكب اقبال الحظّ على نظام الملك واصبح وزيراً للبلاد، عزم الخيام والصبح على الالتحاق به في أصفهان، فاکرم وفادتهما وسألهما سبب الحضور فقال الخيام: دعاني الى قصدك أن تيسر لي سبيل الرزق في نيسابور، فاختصه الوزير من بيت مال المسلمين بمائتين والـف مثقال من الذهب كل سنة يتقاضاها حتى قتل نظام الملك سنة 485 هـ))⁽²⁾ ، وكل الذين كتبوا عن الخيام انما وقفوا عند ظاهرة واحدة هي انحرافه الاخلاقي وأراؤه الغربية في النظرة الى الدين ورجال الدين، فقد أخذ يشبعهم نكايّة وسباً وحقاً منهم ومن ادعاءاتهم، ولم يتحرّوا عن الاسباب الدفينة التي تبرز شخصية الخيام ونظرته الفلسفية الى الحياة والى الوجود الا ذلك المؤرخ الفطن الذي عرف بثاقب نظرته من هو الخيام ولماذا كل هذا التطرف في هذه النظرة الى الدين ورجالاته، ذلك هو القفطي حينما قال فيه ((امام خرسان وعلامة الزمان يعلم علم يونان ويحث على طلب الواحد الديان بتطهير الحركات البدنية لتنزيه النفس الانسانية وبأمر بالتزام السياسة المدنية حسب القواعد اليونانية وقد وقف متأخر والصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها الى طريقتهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم وبواطنها حيات للشريعة لواسع ومجامع للاغلال جوامع ولما قدح اهل زمانه في دينه واطهروا ماسرّه من مكنونه خشني على دمه وامسك من عنان لسانه وقلمه...))⁽³⁾ وسوف نقف عند هذه الظاهرة طويلاً، وهو يفسر لنا مفاتيح الرباعيات ولهجتها الحادة التي تفضي الى معرفة الخيام وماهي فلسفته التي يريدنا للحياة وللوجود.

ويتحتم علينا ان نذكر بعض المؤرخين الذين تناولوا سيرته من حيث العلوم التي ذاع صيته فيها الا انهم لم يذكروا انه كان شاعراً ولديه رباعيات الا كما قلنا (القفطي) ومن هؤلاء المؤرخين ابن الاثير "كان الخيام احد المنجمين الذين عملوا (الرصد) للسلطان ملكشاه السلجوقي"⁽⁴⁾ ويقول البيهقي ((له ضنّه بالتصنيف والتعليم ولم يصنّف الا مختصراً في الطبيعيات ورسالة في الوجود ورسالة في الكون والتكليف وكان عالماً باللغة والفقه والتواريخ))⁽⁵⁾ ويقول زكريا القزويني بانه من ((ينسابور ينسب اليها من الحكماء عمر الخيام، وكان عارفاً بجميع انواع الحكمة ولا سيما الرياضة، وكان في عهد السلطان ملك شاه السلجوقي، وقد سلم اليه مالا كثيراً ليشترى به آلات الرصد ويتخذ رصد الكواكب فمات وماتم ذلك))⁽⁶⁾

مترجمو الرباعيات ...

مازلنا في مدخل الى الخيام، وحتى نلّم بكل ما عنده وما حوله، نقف وقفة عجلية عند الأدباء العرب الذين ترجموا رباعيات الخيام في العصر الحديث بعد أن ظلت هذه الرباعيات محجوبة عنهم منذ القرن الخامس الهجري وحتى القرن الرابع عشر الهجري، فقد ذكر الذين ترجموا رباعيات الخيام أن أول ترجمة لها الى العربية نظماً هي ترجمة الاستاذ وديع البستاني، إذ ترجم اربعين رباعية من الانكليزية، كان قد ترجمها (فيتز كراالد) ترجم مضمونها ولم يترجمها بالنص وانما نظم معاني الخيام واخرجها في قالب شعري، والترجمة من نتاج قريحته، لتكون في النهاية بعيدة عن الاصل رغم بقاء مسحة من شاعرية الخيام، وقد نقل الاستاذ احمد حامد الصرّاف بعضاً من هذه الرباعيات ومنها:

بتّ في حانتي سمير المدام وقبيل انهزام جند الظلام
هتف الطيف بالندامن النيام
ايها الغافلون هبّوا قياماً وارشفوها ودعوا الاياما
قبل ان تجرّعوا كؤوس المنايا وتعافوا والخمر عزّت شرابا (7)

وهذه الطريقة لاتسير على طريقة الخيام التي تعتمد الرباعية فيه على أربعة أشطر، ثلاثة بقافية، وشطر لايسير على نفس حرف الروي وانما هو حر القافية، والفكرة عند المترجم لاتستوعبها أربعة أشطر فحسب، وانما يضطر لان يزيد في أشطر الرباعية لتستوعب مضمونها، والترجمة تخلو من التحليل والتعليق، مجرد نص يخلو من كل شيء يشير اليه.

وأخرج الاستاذ محمد السباعي وهو أحد الادباء المصريين ، مائة رباعية ورباعية أخرى مترجمة عن الانكليزية البعيدة عن الاصل، لكنه اراد ان يظهر اعجابه بهذه الرباعيات فترجمها لنفسه، ولهذا كان انتشارها محدوداً ومنها:

غرّد الطيرُ فنّبّه من نعس وأدر كأسك فالوقت خلّس
سلّ سيف الفجر من غمد الغلس وانبرى في الشرق رام ارسلا
اسهم الانوار في هام القلاع

وقال في أخرى:

صاح بي في النوم طيف هاتها فملؤا الأكواب في ياقوتها
 قبل ان تنضب في كاساتها خمرة الروح وترتدّ الى
 منبع في الغيب مجهول البقاع

ولعل المتلقي لاحظ كيف ان المترجم اعتمد القافية في الاشطر الثلاثة الاولى وترك الشطرين الاخرين بلا قافية، ومن يقرأ ترجمة رباعيات الخيام للسباعي جيداً يلاحظ ضعف الصلة بين اجزاء الرباعية الواحدة اذا قيست بالاصل، ومع هذا فقد أدّى الرجل خدمة يمكن ان تضاف الى الآخرين.

واحسب أنني بعملتي هذا إنما اضع أمام القارئ العربي المراحل التي قطعتها هذه الرباعيات في شعرنا الحديث وهي تترجم الى اللغة العربية، ولا سيما نحن في بداية متدرجة منفتحة على حياة جديدة تملؤها العلوم والثقافات، وهذا يقودنا الى عامل فعال في خلخلة كثير من المفاهيم الادبية التي ألفها الشعر العربي في مراحل حياته المختلفة، وربما كان هذا دافعاً قوياً لمتابعة المتلقي العربي لهذه الرباعيات واسلوبها وطريقة صياغتها وما يختلف هذا المترجم عن ذلك، لأننا نعلم أن الترجمة تعبر عن صاحبها في حالات كثيرة ولان المترجم يجد موضوعاً متناسقاً، فلا يملك والحالة هذه الا موهبته وقابليته وطريقة تعبيره.

ان هذه الترجمات إنما بدأت من نهاية القرن التاسع عشر ولم تتوقف الا بعد الحرب العالمية الثانية، ويبدو أن اعجاب شعراء العراق بهذه الرباعيات كان كبيراً، وهذا واضح من خلال كثرة المترجمين اذا قيسوا بغيرهم من شعراء الاقطار العربية الاخرى، ربما كان ذلك بحكم الجيرة او بحكم معرفة العراقيين للغة الفارسية التي الفت فيها هذه الرباعيات، فقد لاحظنا ونحن نتعرف على هذه الترجمات ان اصحابها نقلوها عن الفارسية مباشرة ومنهم على سبيل المثال الاستاذ عبد الحق فاضل وهو من المترجمين الاوائل الذين برعوا في هذه الترجمة بفعل معرفته للغة الفارسية وبفعل وجوده في طهران ليكون قريباً من آثار الخيام وبفعل موهبته الفنية التي أضفت على مضامين الشاعر روحاً فنية عالية، حتى لقد أثنى عليه الاستاذ (آقاي سعيد نفيسي) عضو المجمع العلمي الايراني واستاذ الادب في جامعة طهران وهو يقدم لترجمة عبد الحق فاضل حيث قال: "في هذا العام - ويقصد به عام 1950 - وفي عاصمة وطن الخيام، حظي بهذا المجد الرفيع فتصدى اديب متمرس ساحر لترجمة رباعيات الخيام بلغة العرب.... فلم يبلغ أحد

هذا المنحنى وهذه الدرجة من الكمال في تحليل نفس الخيام" (8) وانما قدمتها على غيرها من الترجمات على هذا الاساس، مع أنه لم يكن الرائد الاول بين المترجمين.

ومن الذين ترجموا رباعيات الخيام كذلك الاستاذ احمد حامد الصراف، وقد وقفنا عنده وقفة خاصة في كتابه (عمر الخيام)، بدأ بالدراسات ثم تثنى بالترجمة نثراً، واضعاً نصب عينيه مضمون الرباعية، نقلاً حرفياً، بغية أن يعطي صورة حيّة عن هذه الرباعيات من غير أن يكون للجانب الفني تأثير على نقله، فلا يضطر معها ان ينتقي هذه اللفظة دون تلك على حساب المعنى التام لكل رباعية، فضلاً عن دراسة عصر الشاعر بنصوص حرفية ربما تفتقر الى التعليق والى الدراسة واستخراج الظواهر العامة التي تشير اليها النصوص، فكان يأتي بالرباعية في اصلها الفارسي ليعقبها بالرباعية مترجمة الى اللغة العربية، من ذلك هذه الرباعية باللغة العربية:

"يقولون لي إن الجنة طيبة بحورها، وأنا أقول إن ماء العنب هو الطيب. خذ هذا النقد، وذر ذلك الشيء، فصوت الطبل من البعيد حسن" (9).

وهذه رباعية اخرى من صفحة اخرى:

"إن الفلك لا يقبل يدي وقدمي مائة مرّة، مالم يسقني الحبيب صهباء صافية مفرحة، يقولون لي: تب من شربها، وكيف أتوب ولم يشأ الله أن أتوب" (10)

ومن المترجمين الذين ذكرهم الصراف الاستاذ الاديب السيد محمد الهاشمي، ترجمها نظماً، معتمداً على ترجمة الصراف النثرية، ومن الرباعيات التي قام بترجمتها، والتي تعطينا فكرة عن اسلوب ترجمته هي:

جئتي في الدنا أذى وأضطراب وبقائي تحير وارتياب
وبفسر يكون مني ذهاب أي قصر من جيئة وبقاء
وذهاب؟ قد ضلّت الألباب

وهذه الاشكالية لا تتسق مع اشكالية الخيام التي تقوم على أربعة اشطر، والعملية تمتاز بالصعوبة لايمتطيها الا الحدق المتمكن من آله، وهذه رباعية أخرى:

بيد مصحف وكأس بأخرى تاره بالجلال آتي وطورا

بحرام آتي فأحمل وزرا لست تحت السماء بالكافر المحل
د ولا كنت كامل الاسلام⁽¹¹⁾

وقد وقفت ملياً عند ترجمة المرحوم جميل صدقي الزهاوي، ترجمها في بغداد الى اللغة العربية نثراً، وطريقته، انه كان يأتي بالنص الفارسي، فقد كان يعرف الفارسية، ثم يترجم النص الفارسي نثراً الى اللغة العربية، ثم يعيد ترجمة النص النثري الى الشعر في اللغة العربية، واليك بعضاً من هذه الرباعيات نثراً ثم شعراً.

(الرباعية نثراً)

"إن هذا الفلك الدوّار له قصد سيء بروحي وروحك يريد ازهاقها، فتبوء العشب واشرب فوقه الخمرة، اذا لايبطيء أن ينبت العشب من ترابي وترايك".

(ترجمتها نظماً)

إغم العشب فهو أخضر غض وترشّف كأس الحميا عليه
قبلما يبدو العشب أخضر غضا من تراب يصير يوماً اليه

ولو أننا لانملك معلومات عن ترجمة الزهاوي لرباعيات الخيام، لقلنا أن هذا الشعر للزهاوي، فذلك هو اسلوبه اسلوب النظم الذي يبدو بارد العواطف والاحاسيس، ولان الاسلوب يمثل شخصية الكاتب او الشاعر لذلك تمثل هذه الابيات جواً ثقيلاً من الزهاوي، وسوف يمر علينا شيء من شعره ونحن نقارن بينه وبين من يترجم له، وحتى لانظلمه، نذكر رباعية أخرى وأخرى حتى لانوصم بالتحامل، ومنها هذه الرباعية:

(الرباعية نثراً)

" تعدل كأس من الخمرة ألف قلب ودين، وتساوي جرعة منها مملكة الصين، ليس على الارض مرّة هي تفضل الف حلوى سوى الخمرة " .

(ترجمتها نظماً)

إسقني كأساً فهي تعدل عندي ألف دين وألف ملك وطيد
ليس من مرّة سواها تساوي ألف حلوى في كل هذا الوجود

فقد أضع حيزاً من الرباعية حينما حوّلها الى شعر، فاين الصين واين الجرعة التي اضفت في مكانها وهي في النثر جمالاً رائعاً، الا انها لم تجد مكانها في نظم الزهاوي.
واين القلب حيث مكن العاطفة. وهذه رباعية اخرى:

(الرباعية نثراً)

"إن سكبت الخمرة على الجبل رقص الجبل، والذي يُنقصها هو الناقص، أتأمرني أن أتوب منها، وهي تلك الروح التي تربّي الانسان".

(الرباعية نظماً)

إن نضحت الطود الاشم بخمر رقص الطود ناشياً جذلاً
إنني لا أتوب ما عشت منها فهي روح يهذب الانسان⁽¹²⁾

هناك فرق بين أن تسكب الخمرة وبين ان تنضح الخمرة لوحدها بغير فاعل، وواقع الحال ان الذي أنقص الخمرة هو الذي كان ناقصاً، فالزهاوي كمن يحمل صخرة كبيرة فوق طاقتة ولا يكاد يسير بها او يرتفع بها الى أعلى، وهكذا تغيّر المعنى تحت وطأة النظم، وفي حالة كهذه تصبح الترجمة عن طريق النثر أقرب الى روح الاصل واكثر استيعاباً لمضمون المعنى وقرباً من الفكرة الاساس.
أما ترجمة السيد أحمد الصافي النجفي فقد عدت رائدة على كثير من الترجمات أطراها الكثيرون ممن قرؤوها، ولا غرو في هذا فهو شاعر معروف، وله دواوين منها ديوان هواجس، وديوان اللفات.....
من خلال تصفحي لبعض دواوينه الشعرية وجدت انه في ترجمته لهذه الرباعيات قد تفوق على ابداعه الشعري أي انه كان في ترجمته اشعر منه في شعره، ولنذكر رباعية وردت في ديوانه هواجس:

يالئيماً أسأت لي دون ذنب كاشفاً إذ كشفت نفسك رجسك
كيف استطيع قتلك اليوم قل لي بعدما قد قتلت ياوغد نفسك⁽¹³⁾

ورباعية اخرى وردت في ديوانه اللفات:

أسفت على نشر شعري الزكي بمستنقع بالخنا زاجر
من الغبي يبقي در العقول بسوق لها الرأي للتاجر⁽¹⁴⁾

اما ترجمته لرباعيات الخيام فيقول في احدها:
يا الاهي قل لي من خلا من خطيئة وكيف ترى عاش البريء من الذنب
إذا كنت تجزي الذنب مني بمثله فما الفرق ما بيني وبينك ياربي (15)

وهنا يتضح لنا أن شاعريته في هذه الرباعية المترجمة قد تغلبت على رباعياته في دواوينه الشعرية، وهذا يدل على ان بعض الشعراء يسهل عليهم الامر اذا كانوا يملكون فكرة مسبقة يثيرها فيهم آخرون، فينطلق العنان لاحاسيسهم ويرتقي ابداعهم. وقوله في اخرى :

قم قبل غارة الاسى مبكراً وادع بها وردية تجلو الدجى
فلست يا هذا الغبي عسجدا حتى توارى في الثرى وتخرجا

وترجمها ايضا صادق الملائكة، والسيد طالب الحيدري الذي سار على طريقة الزهاوي، فكان يأتي بالرباعية الفارسية وتحتها الترجمة شعراً فحسب دون ان ينثرها، من ذلك هذه الرباعية:

غسلوني اذا قضيت بكاس من شراب ولقنوني بئان
وبيوم الحساب إن تطلبوني فتشوا في تراب باب الحان

ورباعية اخرى:

ختام عمرك ينقضي متعبداً
فأشرب، فعمر سوف يعقبه الردى
لنفس او متفكراً متدبراً
أحرى بأن يقضى بسكر أو كرى⁽¹⁶⁾

اما الرباعيات التي ترجمها المرحوم احمد حامد الصراف في كتابه عمر الخيام فقد وقفنا عندها طويلاً وهو يترجمها نثرأ فحسب، واضعاً نصب عينيه نقل مضمون الرباعية نقلاً حرفياً بغية أن يعطي وبصورة صادقة محتواها وحيث وردت من غير أن يلهث وراء الجانب الفني للرباعية ولا أثر الانتقاء لهذه اللفظة دون تلك على حساب المعنى العام او على حساب السياق الذي عليه الرباعية، كما أنه هياً دراسة تامة عن عصر الخيام بنصوص حرفية لكنها تفتقر الى التعليق والى الدراسة فكان يأتي بالرباعية في اصلها الفارسي، ليتبعها بالرباعية مترجمة الى اللغة العربية، من ذلك هذه الرباعية:

"يقولون لي إن الجنة طيبة بحورها، وأنا أقول إن ماء العنب هو الطيب ، وخذ هذا النقد، وذر ذلك الشيء، فصوت الطبل من البعيد حسن"⁽¹⁷⁾
وكي تكون عند القاريء صورة أشمل عن هذه الرباعيات نأخذ رباعية أخرى:

"إن الفلك لا يقبل يدي وقدمي مائة مرّه، مالم يسقني الحبيب صهباء مفرحة، يقولون لي تب من شربها فقد حان وقت التوبة، وكيف أتوب ولم يشأ الله أن أتوب"⁽¹⁸⁾
واحسب اننا عرضنا الشيء الكثير من هذه الترجمات بما يشبع نهم المتلقي في التعرف على رباعيات الخيام، وان يطلع على هذا الفن الشرقيّ يمتلك كل هذه الامكانيات الرائدة في أفكاره وفنّه ومضامينه، فضلاً عن الحرية التي أتاحها الخيام لنفسه وللاخرين من بعده وفي عصور متلاحقه، لقد أسدل الستار عنها في حياته فكان لايعطيها لمن يريد أن يتعرف عليها الا لأقرب اصدقائه وممن هم في هذا المستوى من تذوق الادب والفن أو من الذين ينظرون نظرتهم، واسدل الستار عليها كذلك في عصرنا الحديث، لولا المستشرقون والغربيون ولولا الاشارتان الاولى للمرحوم احمد امين صاحب ضحى الاسلام وفجر الاسلام.... ، وهي اشارة رائعة ربما جلبت انتباه المثقف العربي الحديث ، فقد ذكر الاستاذ احمد امين⁽¹⁹⁾ انّ ابنه الذي يدرس الطب في لندن بعث اليه رسالة يذكر فيها ، أن كلية الطب في جامعة

لندن اعتادت أن تقدم محاضرة ثقافية عامة تتناول ظاهرة أدبية أو سياسية، وذكر أن موضوع المحاضرة في هذا الاسبوع كان يدور حول عمر الخيام ورباعياته وذكر الابن، ان جميع من حضروا من الانكليز اعطوا رأيهم في عمر الخيام الا أنا، فلم أكن قد سمعت به، وكان الحضور يلتفتون اليّ دائماً، لأنهم يعتقدون أنني كشرقي أولى بمعرفة هذه الشخصية العالمية، وهنا يتدخل والده فيذكر علة الشرقي ونظرته الى مثل هذه الموضوعات على انها من قبيل النوافل التي لافائدة منها وان الطالب الشرقي ينبغي أن يكون محصوراً في اختصاصه الضيق حتى يبرع فيه، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه المتعلم العربي لان الثقافة العامة هي تكملة لأختصاص الطالب وانها تساعده على تنوع الافكار والاطلاع على ما يحدث في العالم حتى يصبح جزءاً منه.

إما الاشارة الثانية التي أشاعت الرباعيات وجعلتها ادباً عالمياً فكان مصدرها ترجمة اخرى لشاعر مصري بارز هو المرحوم احمد رامي الذي ترجمها عن الفارسية، ولاتأتي هذه الاشارة من الترجمة ذاتها وانما من خلال فن الغناء لسيدة الطرب العربي أم كلثوم، فقد لحن هذه الرباعيات أشهر ملحن مصري وسلمها لام كلثوم، فغنتها بصوتها الذي يسمعه جميع اهل المشرق والمغرب العربي، وهكذا باتت رباعيات الخيام على كل لسان يتسامر بها الاصدقاء، يناقشونها ويحلونها ويدندنون بها، وصار كل من يعشق غناء هذه المطربة يعرف الخيام ويعرف رباعياته وهكذا صار الخيام علماً بارزاً حتى نهاية القرن الماضي بين المثقفين وغير المثقفين، فهم في الوقت الذي يعجبون بصوت أم كلثوم فانهم يعجبون بنص الرباعيات، والمتعارف عليه ان الانسان بطبيعته ميال الى كل ما يرفته عنه وما يمكن ان يرتفع به في اجواء من الحرية في الخيال التي لم يعهداها من قبل في الشعر العربي، ولنا ان نذكر بعضاً من ترجمة احمد رامي لرباعيات الخيام، واول رباعية هي:

سمعت صوتاً هاتفاً في السحر نادى من القبو غفاة البشر
هبوا املئوا كأس الطلى قبل ان تفعم كأس العمر كف القدر (20)

وترجمة احمد رامي، وهو شاعر معروف في العامية الدارجة وفي الفصحى، تعتمد على غلبة الروح الفنية في الرباعية ولو كان ذلك على حساب النص ومعناه الحرفي، ولهذا جاءت بعد تلحينها سلسلة تنساب وأعماق سامعيها لتحدث ضرباً من

الشجن والوجد يتلاءمان مع روح الرباعية وتلحينها، وهذه رباعية اخرى من ترجمة احمد رامى:

أفق خفيف الظل هذا السحر وهاتها صرفاً وناغ الوتر
فما أطال النوم عمراً ولا قصر في الاعمار طول السهر⁽²¹⁾

مَنْ هو الخيام؟

بعد هذه الفرشة غير القليلة عن الخيام وعن رباعياته ومن ترجم هذه الرباعيات، يجدر بنا أن نقف ملياً عند صاحب هذه الرباعيات ونعرف من هو الخيام؟ انه عمر بن ابراهيم النيسابوري ابو الفتح: شاعر وفيلسوف فارسي مستعرب من اهل نيسابور مولداً ووفاة. (436هـ - 527 هـ)⁽²²⁾ بلغت شهرة الخيام ذروتها بمقطعاته الشعرية (الرباعيات) نظمها شعراً بالفارسية⁽²³⁾، إن الذين كتبوا عن الخيام لم يذكروا شيئاً يمكن أن يرشدنا الى هذا الرجل الغريب الذي أقام الدنيا وسوف يبقى يقيمها مادامت هذه الرباعيات تحتل هذه الصدارة بين آداب الامم المختلفة، أما الذين ترجموا وكتبوا عنه فلم يكونوا غير مؤرخين يأخذ بعضهم من البعض الآخر مع زيادة او نقصان، وقد رأيت وأتماً للفائدة أن أقرأ كل ما كتب عنه فذهبت الى الانترنت وتحت اسم الخيام وجدت بحثين فقط أما الاول فمأخوذ من مجلة المعرفة الكويتية⁽²⁴⁾، وليس في هذا البحث ما يشير الى تفرد يمكن أن يكون جديداً، وأما مجرد معلومات تواترت حوادثها في جميع التراجم، ولكنه عمل نافع الى حد ما في معرفة بعض المعلومات التي تشبع من يكتفي بقدر يسير من المعرفة، أما البحث الثاني فكان للاستاذ محمد خلف الرشدان من البحرين⁽²⁵⁾، ونجده ميثوثاً في شبكة الانترنت تحت حقل عمر الخيام وهو بحث لا يختلف عن سابقه لا يفيد المتخصصين وإنما مجرد معرفة عامة يكتفي بها المثقف البسيط.

نعود مرة اخرى ونسأل من هو صاحب هذه الرباعيات؟ ما هذه الشجاعة التي يملكها وبكل هذه الثقة دون خوف او وجل من الظروف العامة التي تحيط به، في وقت ما يزال للدين من يدافع عنه، وسلطة تحفظه وتحميه؟ لقد حاولت أن أجد جواباً لهذا السؤال عند جميع من كتبوا عنه وعن رباعياته، دون جدوى، وذلك لانهم انما كانوا يعرضون هذه الرباعيات ويتركون للقارىء حرية التصور والتخيل، رغم ما فيها من اندفاع او انحراف او صور تمس حياة العامة وحياة

المجتمع في افكارهم وفي دينهم وفي قيمهم التي ألفوها اجيالاً طويلة دون أن تهتز بعنف مثل هذا الذي رأيناه في رباعيات الخيام.

من هي عائلة الخيام؟ من هو أبوه؟ من هي امه؟ من هم إخوته وأخواته؟ هل الخيام لقب لابيه؟ هذا ماذكره البعض، فقد امتهن ابوه بيع الخيام في سوق نيسابور التي ولد فيها شاعرنا. من هم الذين علموه القراءة والكتابة؟ وماذا درس من العلوم. كل الذين تكلموا عنه لم يتطرقوا الى عائلته كما لم يذكروا شيئاً عن حياته الخاصة، هل كانت له زوجة، هل كان له اولاد كعامة الناس؟ هل كانوا يعيشون حيث يعيش الآخرون مع عوائلهم بهدوء، يكدون ويكدحون ليكونوا في غنى عن هذه الافكار التي تطرد في الغيبيات، وتسأل عن الوجود في العدم وعن العدم في الوجود وعن هذا لماذا صار؟ عن ذلك لم يصر؟.

ان الثورة التي تحدثم في اعماق الخيام لانتشير الى شيء طبيعي كان يحياه الرجل، وانما تأخذنا مثل هذه الانحرافات لان نبحت عن كل ماهو مألوف في حياته او ماهو غير مألوف منها، إذ ربما نعثر من خلالها على الدوافع التي جعلته يألف مثل هذه الظواهر السلبية او الطبيعية منها، ومن ناحيتنا فاننا قد نملك الحق لأن نتصور مايشاء لنا التصور عن ظروف هذا الرجل وعن علاقاته مع الآخرين، هل كانت علاقته مع أبيه علاقة جيدة ولماذا وقف والده بعيداً عنه وعن تصرفاته التي لم يشر احد اليها هل عانى الخيام حياة التشرد والثورة على محيطه العائلي منذ طفولته، هل كانت امه مشغولة عنه وتركته بلا رقيب يلاحق تصرفاته ويردعه عنها؟ إن مثل هذه الآراء تفرض نفسها على الباحث الذي يقف حائراً للعثور على شيء يخفف عنه حدة هذه التساؤلات. هل كانت العلاقة بين أمه وابيه علاقة سيئة بحيث ارغمتها على اهمال الفتى لنفسه ولتصوراته فنشأت عنده عادة الخروج عن المألوف والانحراف عن الطريق السوي الذي ينبغي أن يعيشه حينما تكون العائلة متوازنة في علاقتها مع بعضها او مع غيرها ، والخيام عاش في عائلة مسلمة يفترض انها تعي حتى ولو بعضاً من شريعة الاسلام تردعها عن الانحراف، أما أن يعيش المسلم على شاكلة الخيام يجاهر بالاباحيه وشرب الخمر ويدعو لهما ويحترف الزندقة ويحرض الآخرين للوقوف ضد الدين ورجالاته فذلك أمر غير مقبول البتة من مسلم يعيش في بيئة مسلمة وعائلة مسلمة. ولعلنا نتذكر ذلك الشاعر الذي سبق الخيام وتعاطىء شيئاً من أساليبه في انحرافات اخرى، ولكنها في النهاية انحرافات تجمع الرجلين على بعضها وتفترق في بعضها الآخر،

هذا الشاعر سبق الخيام ولهذا يعد رائداً له، وتعاطى شيئاً من أخلاقه بعد أن جمعتهما الخمرة وتقديسها والمتعة بها والاندفاع في بعض الرذائل، انه الشاعر الكبير أبو نؤاس الذي يمتلك مع الخيام صفات تقريبهما من بعضهما، الا اننا نعرف الشيء الكثير عن أبي نؤاس في علاقاته وفي اتصالاته اكثر مما نعرفه عن الخيام وعلاقاته مع الآخرين، ذكر محقق ديوان أبي نؤاس "أن للظروف التي اكتنفت حياته من البداية أثراً في تكوينه، فقد نشأ يتيماً في كنف أم شغلته عنه مطالب العيش والسعي الدؤوب من اجله ومن اجل إخوانه، واضطرتها الحاجة الى ان تجعل من بيتها ملتقى لرواد المتعة وطلاب اللذة، يجتمعون في منزلها فيشربون ويقضون مآربهم تحت سمعها وبصرها وتحت سمع الوليد الناشيء، ثم انتهت بها الحال الى علاقة برجل من أهل البصرة، تناقل الناس حديثها فتزوجت به، وهكذا انقطعت هذه الصلة الرديئة التي كانت تربط الام بابنها ولم تعد تهتم الا بنفسها، وانها بعد وفاة أبيه انتقلت بابنها من الاهواز الى البصرة وعمره سنتان"⁽²⁶⁾، ولنا أن نتصور ماذا سيكون عليه من تصرفات في مثل هذه البيئة التي وضع بها مثل هذا الطفل، فقد أباه وعمره سنتان، وخذلته أمه وهو في صباه وبهذا العمر يكون بأمس الحاجة اليها، لقد قذف في حياة قاسية لا يقوى عليها ولا يملك من التجارب ما يمكن أن تنأى به عن هذه الانحرافات، فنشأ الصبي ميالاً للهو والتمرد والمتع منفتحاً عليها، وكان من سوء حظه أن تهيأ له من هم أشد اندفاعاً في الفتك والمتع والسعي وراء الشهوات، والبة بن الحباب الذي علمه طرق الرذيلة وانحرف به الى كل مايؤدي بالاخلاق والقيم الى الهاوية. وغابتنا من هذا أن نتعرف على الطريقة التي نشأ بها هذا الصبي نشأة المجان الذين يبحثون عن الظرف والدعابة واللذة، ولاعبرة بعد ذلك لأن يلتفت امثال هؤلاء لأنفسهم الا حينما يصلون الى نهاية الطريق بعد أن اضناهم التعب وخارت قواهم، لكن هذه الثورة اذا صحّ انها ثورة تأتي متأخرة وتنم عن الضعف الذي يصاب به الانسان وقتئذ، وهذه سمة عامة لهؤلاء الذين يسرفون على انفسهم في البداية وهم أقوياء، وأبو نؤاس هو من هؤلاء، ويتبعه الخيام في ذلك، ولو ننظر الى قول أبي نؤاس وهو يهيه لنفسه ولاقرانه هذه الاجواء المرححة التي لا تتأتى الا من أجواء الخمرة والا من هؤلاء الذين تركوا منغصات الحياة في اجواء من هذا القبيل، هؤلاء الذين يرون أنهم خلقوا لمثل هذه الحياة فلا ينبغي أن يضيعها الانسان بالجد والهموم التي تسرق الحياة، هم خلقوا لهذا ولم يخلقوا لان يحيوا الحياة الخسنة وحياة الانتقال على

الجمال في حرّ الصيف وبرد الشتاء ووراء انعامهم التي تتحكم بهم، في مثل هذه الاجواء راح أبو نؤاس يذكر أصحابه، وربما يذكر الآخرين والكلام، موجه للجميع بعد ذلك لأن يبتعدوا عن اللوم وعن النصائح الفارغة التي تكال له ولا مثاله لأن يبتعدوا عن ارتكاب الموبقات:

دع عنك لومي فان اللوم إغراء	وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لاتنزل الاحزان ساحتها	لو مسّها حجرٌ مسّته سرّاء
قامت بابريقها و الليلٌ معتكر	فلاح من وجهها في البيت لألاء
رقت عن الماء حتى مايلائمهها	لطافةً وحفا عن شكلها الماء
دارت على فنية دار الزمان لهم	فما يصيبهم الا بما شاؤا
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلة	كانت تحل بها هند وأسماء
حاشا لدرّة أن تبنى الخيام لها	وأن تروح عليها الابل والشاء
فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة	حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء
لاتحظرا لعفو إن كنت امرءا حرجاً	فان حظركه في الدين ازراء ⁽²⁷⁾

واحسب ان القارىء انتبه الى البيت الاخير وما فيه من معنى يقع في الصميم، اراد الشاعر من خلاله أن يقف بوجه هؤلاء الذين يدعون الدين ويحرمون الكثير مما لا يتناسب مع امزجتهم، فقد ثقل عليهم حتى سماع أقوال المخالفين لهم ممن لا ينظرون نظرتهم الى الدين او الى هذا السلوك الذي لاتقرّه الاديان السماوية، ويقصد ابو نؤاس من قوله ايضاً اذا كنت امرءا حرجاً تتخوف من كل شيء فان الدين على رأيهم يتحول الى زراية، وعليك ان تبتعد عن زراية الدين، والدين يُسرّ فلا ينبغي أن يسود رأي المتعصبين.

إننا لاتعرض وجهة نظر أبي نؤاس في الخمرة فحسب، وانما نهىء بهذا لشاعرنا الخيام ونظرته، لاننا نعتقد ان الخيام لم يكن بعيداً عن هذه الاجواء وان في تراثنا العربي مايشير الى ذلك، ولكل رأيه وفيه نختلف وفي أخرى نتفق، فابو نؤاس وامثاله يسعون وراء المتعة لمجرد كونها متعة، يحافظون عليها قدر الامكان حتى تنسيهم واقعهم المرير الذي لا يحمل الا الشرور، وان الاصوات التي تنهاهم عنها لم تكن غير اصوات مؤلمة ومرعبة لهم واصوات من لم يملك تجربة عن الخمرة وما تتركه في النفس. اما نظرة الخيام فتقوم بالاضافة الى ذلك على فكر فلسفي يعطيها منحة من القدسية ترتفع بالانسان عن هذا المستوى الذي نراه

عند المنحرفين والجهلاء الذين لا يملكون رادعاً ذاتياً يقيهم شر الانحراف ليكونوا مع المتهتكين والاوزاغ، لذلك هي عند ابي نواس تتحول الى غذاء لا يمكن العيش بدونه فتكون على هذا الاساس بعيدة عن أن تشكل عيباً او نقصاً لمن يتناولها او يواجه الناس بها، فهو صريح غاية الصراحة جريء غاية الجرأة لايهاب احداً من الناس ولا السلطة الا في اضيق الحدود وبأمر ممن هو في نهاية السلطة واعلاها:

الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهر

فبح بأسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر⁽²⁸⁾
 هذه مبادئ عامة آمن بها أبو نواس، وآمن بها الخيام ولا سبيل الى التغاضي عنها وانما يرون أن المتعة لا تكون الا بتعاطيها صراحة والدعوة اليها من غير ماخجل أو حياء، وأن حياة بلا خمرة ولا سكر لا تساوي شيئاً وان حياة فيها سكر دائم هو العُثم بعينه، ولهذا فان الابيات الاخرى التي تلي هذه الابيات أنما تحمل انحرافاً اخلاقياً يعبر عن جماعة لم تعد تعبأ بالاخلاق وانما تجد في الصراحة جانباً آخر من جوانب المتعة التي تتلاءم مع الخمرة ومكانتها عندهم.

لانجد مثل هذه الصرخة الفادحة في الدعوة الى المجون وما رافقها من صراحة تشير الى انعدام الوازع القيمي والاخلاقي والدعوة الى الفساد والزنا وغيرها مما تأباه النفس الانسانية المتوازنة. ولا وجود لمثل هذه الصور الفادحة عند عمر الخيام، وانما هو معني بتقديس الخمرة التي تتكامل مع شخصيته والتي تفتح له آفاقاً رحبة يكون من خلالها مع هؤلاء الذين غيروا النواميس والمثل العليا لصالح نظرتهم على المدى البعيد، ولأنه عجز عن الوصول الى المثال الذي يؤمن به، ويريد من المجتمع أن يؤمن به حتى يتخلص من الشرور والردائل، أي حينما عجز الخيام عن هذا كله راح يعاتب خالقه فانشغل بمسألة الوجود والخلق والتكوين والخير والشر والرديلة، وسوف يمر ذلك علينا ونحن نتعامل مع خمرياته.

لم يكن الخيام مبتكراً بين الشعراء في تعاطي الخمرة، ولم يكن أبو نواس مبتكراً في تعاطي الخمرة، وانما يتطلب البحث منا أن نمرّ مسرعين لننتذكر شيء من هذا الابتكار والابداع، مع شعراء آخرين سبقوا عصر الخيام وعصر ابي نواس وعصر الوليد بن يزيد والاخلط وابي محجن الثقفي والاعشى وغيرهم، ولنذكر ابيات للمنخل اليشكري :

فاذا شربت فأنني ربّ الخورنق والسدير
وإذا صحت فأنني ربّ الشويهة والبعير⁽²⁹⁾

لاحظ الفرق بين ان يكون رب الشويهة والبعير وبين ان يكون رب الخورنق والسدير، والفرق شاسع بين راعي ابل وغنم يهيم في الصحراء وتتحكم الانعام في حياته وبين ان يكون ملكاً يملك القصور الفخمة ليتحول الناس الى رعية يأمرهم حيث يريد، بساطة شاعر بدوي، وحياء ملك متمكن من رعيته.

والقاريء للشعر العربي يتذكر ايضاً أبيات أبي محجن الثقفي الذي سجن في العصر الاسلامي الاول لانه شرب الخمرة والتي يقول فيها:

إذا متّ فادفنيّ الى جنب كرمة
ولا تدفنيّ في الفلاة فأنني
ترّوي عظامي بعد موتي عروقتها
أخاف اذا مامت أن لأذوقها⁽³⁰⁾

والبيت الثاني ضمّنه أبو نواس في قصيدته التي جاءت تحت عنوان (اسقني ثم غنتي) وأولها:

ولاح لحاني كي يجيء ببدعة
وتلك لعمرى خطّة لأطيقها⁽³¹⁾

ولعلنا نتذكر اخبار الوليد بن يزيد، الخليفة الأموي، والتي رواها ابو الفرج في كتابه الاغانى رغم ما فيها من تعدّد للمحارم ما كان ينبغي أن تصدر عن خليفة يفترض فيه أن يكون قدوة في حماية الاخلاق وحماية الشريعة.

الخيّام والخمرة ...

والآن جاء وقتنا لأن نكون وجهاً لوجه مع رباعيات الخيام التي تتناول الخمرة، وسنكون في حلّ من الاعتماد على ترجمة بعينها، وانما سنبيح لانفسنا حرية الانتقال بين هذه التراجم، على اختلاف مترجميها في الموهبة وفي التعبير عن روح هذه الرباعية او تلك، وأحسب اننا على هذا الاساس سنكون قريبين من روح الخيام ومن نفسيته ومن فلسفته في النظرة الى هذه الخمرة التي يقدسها بكل جوارحه وبكل وجوده.

ولعلّ اول ملاحظة يراها القاريء المتفحص، أن هذه الرباعيات لا تقتصر على الخمرة فحسب، رغم أنها تشكل جزءاً أساسياً منها، وإنما ترتبط بموضوعات أخرى لها صلة مباشرة بالاثر الذي تتركه الخمرة في هذا المجال، قريبا من الدين، موقفها من الايمان، علاقتها برجال الدين، رغبته في ان يتعاطاها الآخرون حتى يرتفعوا الى مستوى الانسانية، أثرها في رقة الاخلاق وتقويم الانحراف، الخيام وهو يوزّع نصائحه لمن لا يملك تجربة قبل أن يتعاطاها، وهكذا نراه معنياً بتهيأة الاجواء ليحث الآخرين ممن حرموا نعمتها ليكونوا في وسط هذه الاجواء المملوءة بالسعادة والنشوة، اجواء البعد عن الهموم وعن مآسي الحياة حينما تكون بلا خمرة، وحينما يضيع الانسان عمره في العبادة وفي التفكير بهذه الدنيا الفانية التي تستهلك عمر الانسان ووجوده:

حتام عمرك ينقضي متعبداً للنفس أو متفكراً متديبرا
اشرب فعمر سوف يعقبه الردى اخرى بأن يقضى بسكر او كرى⁽³²⁾

والموت هذا الغول الذي راح يلاحق الخيام في كل مرحلة من مراحل حياته، صار جزءاً من هذه الخمرة امتزج بها وصار نداءً لها فكانا يتأخيان وصولاً الى اجواء منفتحة تخفف من حدة هذه الحياة. لذلك يقول لماذا نضيع الوقت بالتفكير والتدبير والعمر قصير، عليك ان تعالج هذه المنغصات حتى لاتذهب قبل أو انك، وان أحسن وسيلة يتخلص بها المرء من هذه الحياة انما يكون بالخمرة او بالنوم، او بالخمرة التي تفضي الى النوم، فهي دواء وبلسم لكل هؤلاء الذين تهيؤوا لمثل هذه المشاهد في حياتهم.

ولم يقف عند هذه الحدود وانما راح يخاطب اصحابه ويلتمس منهم أن يغتسل بالخمرة لا بالماء بعد موته وقيل مواراته الثرى، ويذهب الى ابعد من هذا حينما يطلب من ملقنه أن يحتفظ بالكأس الثانية أثناء دفنه، ولكي تصبح الصورة كاملة فانه يوجه كلامه للذين يسألون عنه في يوم الحساب، فانهم سيجدونه في مكان واحد، هو تراب الحان الذي عبّ منه حتى شبع:

غسلوني اذا قضت بكأس من شراب ولقنوني بئان
وبيوم الحساب إن تطلبوني فتنشوا في تراب باب الحان⁽³³⁾

وهكذا يتحول الخيام الى أسير للخمرة، لا يفكر الا بها ولا يعيش الا معها، وان كأساً واحدة منها تعادل مملكة الصين، وتساوي ألف ملك والـف دين، أما المرارة التي تخالطها فتعادل ألف حلوى، واليك الرباعية التي عربها الزهاوي نظماً ونثراً:

"تعدل كأس الخمرة ألف قلب ودين، وتساوي جرعة منها مملكة الصين. ليس على الارض مُرّة هي تفضل الف حلوى سوى الخمرة" وقد نظمها شعراً فقال:

اسقني كأساً فهي تعدل عندي الف دين والـف ملك وطيد
ليس من مُرّة سواها تساوي الف حلوى من كل هذا الوجود⁽³⁴⁾

ونأخذ رباعية اخرى من الزهاوي، وفيها صور ظريفة، اذ من خلالها يمكن الحكم على رباعيات الخيام انها لم تكن مجرد تكرار يدور حول نمط بعينه وإنما تطرد الصور وتتنوع في لفظها وفي معناها لتريك شريطاً متنوعاً وهو يعرض مشاهدته التي تأتي بكل ماهو طريف وظريف وجديد، وان هذه المشاهد لم تكن الا انعكاساً لحياته القلقة، والمتلقي الفطن ربما يكون عاملاً فعالاً في تجسيد هذه الصور، فنحن أمام صورة انسان يتفنن في التعامل مع الخمرة وتقديسها واثرها في نفس شاربها، وما يجعلنا نقف مندهشين ونحن نتعامل مع هذه الروحية الغربية وصداهها الذي يبدو في كل جارحة من جوارح الخيام، وهكذا يكون من حقنا أن نتساءل: هل صحيح أنّ الخمرة تمتلك كل هذه الامكانيات التي باتت تستولي على روح الخيام وامثاله ممن تحولوا الى أسرى لا يملكون فكاً أسرهم منها بعد أن أفقدتهم الشعور بالحياة وبالواقع وصارت الخمرة غولاً يسلبهم ارادتهم حتى تحولوا الى أناس مقيدين بالاصفاد لا يملكون انفكاكا لقيودهم، وما هذه القوة التي تملكها الخمرة التي سيطرت على انسان يملك كل صفات الانسانية؟ ثم ما هذه المثالية التي آمن بها وراح يفكر من خلالها بتغيير الوجود لكنّه لم يستطع أن يعمل شيئاً فانزوى في جحره يبحث عن السلوى فلم يجدها الا في هذه الخمرة.

لقد اصيب الخيام بنكسة من خلال ضعفه ومن خلال مثاليته، فبات مشلول الحركة لا يملك الا أن يبحث عن السلوى، فلم يجدها الا في هذه الخمرة، ولنذكر هذه الرباعية التي يقدر الخيام فيها دور الخمرة وتداعياتها في تغيير سلوك الانسان، وقدرتها على فتح الافاق المحدودة الى أخرى تستوعب الحياة بغية ان تهيء اجواء رحبة، قال الزهاوي وهو ينثر هذه الرباعية "إن سكبت الخمرة على

الجبل، رقص الجبل، والذي ينتقص منها هو الناقص، أتأمرني ان أتوب منها، وهي تلك الروح التي تربى الانسان" والرباعية نفسها منظومة شعراً، يقول فيها:

إن نضحت الطود الأشم بخمر رقص الطود ناشياً جذلانا
إنني لا أتوب ما عشت منها فهي روحٌ يهدّب الانسانا (35)

فنحن امام صورة لجبل بدأ يرقص لمجرد أن نضح الاناء بببل من الخمرة، يرقص وهو جذلان وقد انتشى بهذا الببل، وبهذه الصورة المرححة راح الشاعر يتحدى الجميع صامداً بوجه اولئك الذين يريدون منه أن ينسى الخمرة وان يتركها، والذي أوجد هذه الصورة، صورة التحدي امام الجميع، انما هي الخمرة.

ان هذا التقديس للخمرة من جانب الخيام كثيراً ما يخرج عن وجوده كإنسان خلقه الله في هذه الحياة ليكون واحداً من هؤلاء الناس الذين يخدمون الانسانية، لا أن يعصي الله ويخرج عن شريعته، ويتفنن في استنباط المغريات يسديها للآخرين على حساب التوازن الاخلاقي والاجتماعي، وكثيراً ما كان يخرج عن حدود المعقول الى ما يدخل في باب التهلك ولوج ساحة الموبقات، كهذه الرباعية الغريبة والتي يعطينا من خلالها صورة رجل تهيأ للراحة وللشرب تخلصاً من متاعب الحياة في يوم من أيام الربيع، ورفيقه في هذه الرحلة هي الخمرة، وحينما بدأ يشرب، هبت عاصفة هوجاء فكسرت ابريق خمره واراقت مافيه، فلم يقف ساكناً وانما راح يزمجر وهو في أشد حالات الغضب ويقول: "ياالاهي حطمت ابريق مدامي، واوصدت باب الانس في وجهي، سكبت على الارض خمرتي الوردية، تراب بقمي، هل انت سكران ياربي" (36).

والصورة واضحة في كل حلقة من حلقاتها السردية من خلال استخدامه افعال (حطمت، اوصدت، سكبت) ساهمت في بناء الحدث وحوار من طرف واحد موجه الى الذات العليّة، وتهيئه لسفر ثم اعداد كل مايؤدي الى أسباب المرح في هذه السفرة، ابريق الخمر، الطعام، الشراب، ثم يأتي دور العاصفة دور انسكاب الخمرة، ثم صورة الخيام وحواره كما قلنا وقد ثار وغضب فوقف بوجه خالقه مستنكراً متحدياً، مع هذا فالإنسان ومهما تصل به حالات الغضب فانه في النهاية يهدأ ويبدأ بالوقوف ليحاسب نفسه على ما فرط بحق الله رغم ما بدر منه من صلف وتحد، فانه لن يكون بلا عقاب، وانه أحس بانه تعدى الحدود، وان عليه ان يندم ثم يعتذر، الا إن الطبيعة التي جبل عليها لاتسمح لأن يقف طويلاً عند مثل هذه

المشاهد، فجاءت هذه الرباعية وكأنها تحمل النقيضين، صورة انسان ندم على ما بدر منه من تحدّ وصورة اخرى أنه على الرغم مما قاله مازال يريد ويريد وان الله قادر على ان يهيء له كل ما يريد، قال بعد ان رجع الى نفسه "ياإلهي من ذا الذي لم يرتكب خطيئة في الدنيا، وكيف عاش فيها من لم يخطيء، إن قابلتني على سيئتي بسيئة مثلها، إذا ما الفرق بيني وبينك" (37).

اعتذار اقبح من فعله لما فيه من تحدّ يفوق الرباعية السابقة، فانه هاهنا اكثر سخرية من تلكم الحالة المباشرة التي يخاطب فيها الذات الالهية، بل انه ليسخر من خالقه ويعده نداءً له يكلمه بما يريد أن يكلمه ويتعامل معه على اساس الندّ للندّ، لماذا كل هذا الاندفاع في شرب الخمرة؟ سؤال يرد على لسان كثيرين ممن قرأوا رباعياته في هذا الجانب والألم يكونوا قرؤها، والخيام ليس مستهتراً في سلوكه الواقعي وليس منكباً على الرذيلة والشرور فهو صاحب رسالة ثقافية وعلمية تبدو واضحة في آثاره التي خلفها في الفلك والجبر والرياضيات والفلسفة والعلوم، وحتى في شعره المعروف في اللغة العربية، فلا نجد فيه ما يخرج عن حدود اللياقة والادب، وانما نجد انساناً متوازناً يضع الكلمة في مكانها المناسب، ومما قاله من شعر في العربية فيه بون شاسع بين الخيام كشاعر للرباعيات وبينه كشاعر بالعربية، قال الخيام:

إذا رضيت نفسي بمسيور بلغة	يحصّلها بالكّد كفي وساعدي
أمنت تصاريف الحوادث كلها	فكن يازماني موعدي أو مواعدي
ولي فوق هام النّيرين منازل	فوق مناظ الفرقدين مصاعدي
متى مادنت دنياك كانت بعيدة	فوا عجبي من ذا القريب المباعد
إذا كان محصول الحياة منية	فسيان حالاً كل ساع وقاعدي (38)

ولولا البيت الاخير لكان الخيام هنا خياماً آخر يحيا حياة هادئة بعيدة عن الصخب والركض وراء المتعة والشهوات، والبيت الاخير ربما ينساق مع الابيات الاخرى لان فيه تساؤلاً عن خلق الانسان وخاتمته، الموت الذي يهرب منه الخيام في رباعياته خاصة، فهو غول يلاحقه وينغص عليه كل حياته، وفي هذه الابيات نجده يفتخر بنفسه وباخلاقه وبسلوكه وبقابلياته وعفاقه وتقديسه لخالقه يقول فيها:

تدين لي الدنيا بل السبعة العلى	بل الافق الاعلى اذا جاش خاطري
أصوم عن الفحشاء جهراً وخفية	عفاً وافطاري بتقديس فاطري
وكم عصابة ضلت عن الحق فاهتدت	بطرق الهدى من فيضي المتعاطري

فان صراطي المستقيم بصائر نصبن على وادي العمر كالفناطر (39)

وهنا أبيات اخرى قليلة وكلها على هذا المستوى من الحكمة والخلق والاتزان ، حتى ان القاريء ليعجب ان تكون هذه المقطعات للخيام اذا استذكر رباعياته وما فيها من انحراف عن السلوك السوي، ولكنها شياطين الشعر، تعجب به لما فيه من روح فنية وان كان يحود عن الاخلاق.

ولنرجع الى سؤالنا: لماذا كل هذا الاندفاع في شرب الخمرة وحث الاخرين على شربها؟ لماذا هذه الازدواجية في النظرة الى الحياة والى الوجود والى الخمرة؟ مالذي يدفعه الى كل هذا وهو العالم الفطن في كل فروع المعرفة وفي قضايا الفقه والشريعة؟ .

هناك شيء يجلب الانتباه في حياة الخيام الا وهو هذه الأتات الصارخة التي تشكل هيجاناً حاداً يحتدم في اعماقه وكثيراً ما تظهر عليه ولاسيما بعد ان يوغل في الاثم وفي الاندفاع عن كل ماهو غير مألوف، يثور فيها على نفسه وعلى هذا المصير الذي يلفّه، كما أن هناك ثورة تغلي في اعماقه حينما لايجد صدى لثورته وصدى للمثل العليا التي يؤمن بها، انه يحتاج الى من يفهمه، الا انهم لايلتفتون اليه ولايعيرون له بالأ، وانما قد يضحكون منه، لانهم ليسوا على مستواه، فالمجتمع في رأيه لايرتقي الى مستوى تفكيره، والسلطة تعجّ بالجهلاء مع امتلاكها القوة في رسم خطوط المعرفة.

يريد أن يغيّر واقعاً مريراً من خلال اعلاء صوته في بث افكاره ومثاليته، فلا يملك الا ان يعلن ثورته على نفسه وعلى قيمه ويصاب بالاحباط، فلا يملك الا ان يعلنها ثورة من خلال مايعبر به من شعر ولا يملك الا ان يخفف من هذه الثورة العارمة والاقضت عليه، وهكذا يعود خائباً حاسراً لانه لم يستطع أن يعمل شيئاً، وترغمه الظروف الى ماينسيه هذا الاحتدام، فيجد في الخمرة ماءً يطفئ بها هذه النار التي تكاد تحرقه ثم الشعر الذي يلهيه عن هذه الثورة المحترمة، ليجد راحة ولو لمدى محدود، بغية ان يتهيأ مرة اخرى لثورة اخرى وهكذا، فاذا نصحه احد بهجر الخمرة ثار عليه وكثّر عن انيابه لانه يجد فيها ملاذاً يقيه من هذه الحالة التي وضع نفسه فيها، وهنا يخاطب نفسه "اشرب الصهباء فانها راحة روحك، وأمان لنفسك وقلبك الجريحين، واذا دهمك طوفان الغم من ورائك وأمامك فلذ بالخمرة، فانها سفينة النجاة" (40) وهذا احساس يشير الى الخيبة التي لاحقته أينما ذهب، يحاول ان يتوقف فلا يقدر فانه لم يعد يملك زمام نفسه، وهكذا يرجع خائباً

يبحث عن السلوى فلم يجدها في هذا الدواء او العلاج المزمّن الذي لاحقه الى النهاية، فما الذي قدمته له المدارس وما فائدة الكتب والعلم بعد ان وصل الى هذه الحالة التي رأيناها من خلال رباعياته " نحن خلعنا رداء الزهد على دنّ الخمر، وتيممنا بتراب الحانات، لعلنا نجد في ابوابها العمر الذي اضعناه، في المدارس" (41).

وعلى الرغم من الاثر الكبير الذي تركته الخمرة على صحته، حتى صار لا يستطيع حمل جسده، ويذكر في اكثر من رباعية الاضرار التي لحقته جرّاء تعاطيه الخمرة، ولكنه ينسى كل هذا في سبيل أن يتخلص من ساعة هم وقلق، وعنده إن أفضل ساعات العمر هي تلك التي يقول له الساقى: خذ كأساً أخرى، مع انه وصل الى نهاية سكره، وهو مايتوضح من خلال هذه الرباعية "لا أستطيع العيش بلا خمر صافيه، ولا أقدر أن احمل عبء جسدي بغيرها، انا عبد تلك اللحظة التي يقول فيها الساقى(خذ كأساً اخرى) وأنا لأقدر من شدة السكر"(42).

وهكذا تطرد المشاهد والصور وتتغير من رباعية الى أخرى وهو يعطيك شريطاً تتنوّع مشاهده، ففي كل رباعية صورة حيّة تختلف عن تلك الصورة التي في الرباعية الاخرى، وبطلها الخيام نفسه، ومعها يتفنن في عرض آرائه وافكاره عن هذه الخمرة التي اخذت بلبه ولا مجال لمقارنتها مع اية متعة اخرى، فهي أعلى وأثمن هديّة في هذا الوجود بل انه لشديد الاعجاب بهؤلاء الاغبياء الذين يبيعون الخمرة بشيء زائل لايمكن ان يعادل قيمتها وروحها في حياة الانسان منذ خلق هذه الارض، وفي هذه البسيطة، ايّ شيء أحسن من الخمرة، إن من يقدر قيمتها هم اصحاب النظر واصحاب البصيرة الذين يعرفون قدرها جيداً واكثر مايشير اعجابي ودهشتي هؤلاء الذين يبيعونها، ماذا يستطيعون أن يحصلوا من خلال بيعها، فهي أثمن شيء من هذا الوجود يقول:

مذ بدا الميزانُ في عرض السّما والمشتري
 مارأى أحسن من هذي الطلا ذو بصيرٍ
 عجبي من بائع الصهباء في غفلته
 ياترى، افضل مما باع ماذا يشتري ؟ (43)

ويكرر هذا المعنى في رباعيات أخرى، ويذكرها معترفاً أن هذه الخمرة هتكت أستارنا بين الناس وجعلتهم ينظرون الينا نظرة فيها ازدرء، ولكنني مع هذا لن أتركها ولن اهجرها مادمت حيا في هذا الوجود، لانها صارت جزءاً مني ومن وجودي، ثم يعود

مرة أخرى بل ومرات عديدة ينتقص من هؤلاء الذين يبيعونها ويصفهم بالاغبياء، اذ^٥ ماذا يشتررون أفضل من هذا الذي يبيعون:

هتكت استارنا بين الورى هذي الحميا
غير أني لست بالهاجرها مادمت حيا
عجبا للبائع الصهباء في غفلته
أتراه يشتري أفضل مما باع شيئا (44)

وفي حالات أخرى نلاحظ اشارات عابرة مصدرها هؤلاء الذين يتعرضون له بسبب تعاطيه الخمرة، فيرد عليهم بقوة ويعرض عليهم بعض المسوغات التي تضطره الى تعاطيها لانها صارت جزءاً منه ولانها تثير فيه صفات تشبه المعجزة من كل باب من ابواب الحياة ويتحول مزاجه الى لهب يستطيع أن يبتكر كل جديد، ويستطيع ان يعبر عما يختلج في نفسه بكل سهولة ويسر، وما كان ذلك ليكون لولا الخمرة التي تفتح مواهبه ومقدرته:

عندما آخذ في يمناي جاماً من شراب
ومن الغبطة أغدو ثملاً ضاع صوابي
تتأتى معجزات عدّة في كل باب
من مزاج لي كالنار ونطق كالعجاب (45)

والخيام يطرد في ذكر الاسباب التي تدعوه الى الخمرة، وهو في كلّ رباعية من رباعياته في هذا المجال يأتي بجديد يحاول اقناع الناس بالاسباب التي دعته الى ذلك، ومنها ان الخمرة هي التي تثير فيه دواعي الغبطة والفرح والسرور، وهي التي تضيق صوابه، وتنسيه هذه الحياة المليئة باساليب الغش والحيلة والكذب وهي التي تمنحه الشجاعة لان يقول الحق ويعبر عن الصدق، وانها تملك القدرة على تغيير حياة الناس وارتفاعهم الى مستوى انساني كانوا قد افتقدوه في ظل حياة مليئة بالشرور في قوله:

إن حسا الصهباء شحاذاً أصارته أميرا
أو حساها ثعلباً أصبح ضرغاماً هصورا
أو حساها الشيخ رذته غلاماً يافعا
أو حساها اليافع الغضّ غدا شيخاً كبيراً (46)

وهكذا وعن طريق الخمرة يستطيع الشحاذ أن يحقق عن طريقها مالا يحققه عن طريق الصحو، فهي التي تحول الشحاذ الى أمير والجبان الى أسد والشيخ الى غلام يافع، وهذا اليافع الى شيخ كبير كله رجولة وحكمة، وهي فوق هذا كله لها قابلية على التغيير وتحول الضعيف الى مستوى رفيع له قيمة، قد يفقدها اذا كان صاحباً. واحسب اننا قد وقفنا في محطة الخمريات عند الخيام بما يشكل ظاهرة بارزة في رباعياته، وانه اعطانا صورة واضحة يمكن أن تكون كافية للمتلقي المتطلع، وانه اذا

اراد المزيد فلا غنى له من قراءة الرباعيات مباشرة من خلال أحد مترجميها الذين ذكرناهم سابقاً وخصّ منهم الاستاذ عبد الحق فاضل، واحمد الصافي النجفي اللذين ترجموا الرباعيات شعراً، ثم ترجمة الصّراف الذي ترجمها نثراً. ان صراحتة في تناول الخمرة هي التي وجهت الانظار الى عمر الخيام في كل انحاء العالم، ذلك ان الانسان حينما يحود عن الطريق، يصبح وفي ظل مجتمعات محافظه ومؤمنة، شاذاً، وهذا الشذوذ هو الذي يدفع الاخين الى متابعته، كل من الزاوية التي يؤمن بها، وهكذا وجدت رباعيات الخيام هذا الحشد الهائل من القراء وهذا الحشد الكبير من المترجمين في جميع اللغات، بعد أن وجدوا في الرباعيات ما يطرده او ينسق مع نفسياتهم في الخروج على كل ماهو غير مألوف بين الناس جميعاً.

المصادر والمراجع

- 1- آثار البلاد واخبار العباد - زكريا القزويني (674 هـ) - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - 1960 م .
- 2- الاعلام - خير الدين الزركلي - ط3 - د. ت .
- 3- الى ولدي - احمد امين - المطبعة النموذجية - ط 2 - مصر .
- 4- تاريخ الحكماء - القفطي جمال الدين ابو الحسن - مكتبة المثنى - بغداد 1903 .
- 5- تاريخ حكماء الاسلام - ظهير الدين البيهقي - عني بنشره : محمد كرد علي - مطبعة الترقى - دمشق 1946 م .
- 6- ثورة الخيام - عبد الحق فاضل - دار العلم للملايين - ط2 - بيروت - 1968 م .
- 7- جامع التواريخ - رشيد الدين بن فضل الله - ترجمة : فؤاد عبد المعطي - دار النهضة العربية - ط 1 - بيروت - 1983 م .
- 8- جهار مقالة (المقالات الاربع في الكتابة والشعر والنجوم) - السمرقندي احمد بن عمر بن علي النظامي (550 هـ) - ترجمة عبد الوهاب عزام ، يحيى الخشاب - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - 1949 م .
- 9- ديوان الاعشى - بيروت - دار صادر - 1960 م .
- 10- ديوان اللغات - احمد الصافي النجفي - ط3 - بيروت - 1983 م .
- 11- ديوان ابي محجن الثقفي - جمعه : ابو هلال الحسن بن عبد الله العسكري - بيروت - 1970 م .
- 12- ديوان ابي نواس - بيروت - بلا تاريخ .
- 13- ديوان هواجس - احمد الصافي النجفي - ط3 - بيروت - 1983 م .
- 14- رباعيات الخيام - احمد رامي - القاهرة - 1950 .
- 15- رباعيات الخيام - احمد الصافي النجفي -

- 16- رباعيات الخيام- طالب الحيدري – ط2 – 1964 .
- 17- رباعيات الخيام – جميل صدقي الزهاوي – بغداد – 1928 م .
- 18- رباعيات الخيام – محمد الهاشمي .
- 19- عمر الخيام – احمد حامد الصّراف – ط2 – 1957 .
- 20- الكامل في التاريخ – ابن الاثير – دار صادر ، دار بيروت – 1966 م .
- 21- مجلة الحوار المتمدن – احمد الرشيدان – البحرين – عدد 119 .
- 22- مجلة المعرفة الكويتية – عدد 2006 .

الهوامش

- 1- احمد حامد الصّراف- عمر الخيام – 27.
- 2- رشيد الدين بن فضل الله – جامع التواريخ – 2: 47.
- 3- القفطي جمال الدين ابو الحسن- تاريخ الحكماء –
- 4- ابن الاثير – الكامل في التاريخ – 8: 121 (احداث سنة 467 هـ)
- 5- البيهقي – تاريخ حكماء الاسلام – 119.
- 6- زكريا القزويني – آثار البلاد واخبار العباد – 2: 133.
- 7- احمد حامد الصّراف – عمر الخيام- 39.
- 8- عبد الحق فاضل – ثورة الخيام- ح.
- 9- احمد حامد الصّراف – عمر الخيام – 169 .
- 10- م. ن- 195 .
- 11- محمد الهاشمي – رباعيات الخيام – 70.
- 12- محمد صدقي الزهاوي – رباعيات الخيام – 9
- 13- احمد الصافي النجفي – ديوان هواجس- 88.
- 14- احمد الصافي النجفي- ديوان اللفحات- 46.
- 15- احمد حامد الصّراف- عمر الخيام – 43.
- 16- طالب الحيدري – رباعيات عمر الخيام – 11.
- 17- احمد حامد الصّراف – عمر الخيام – 169.
- 18- ن.م- 159.
- 19- احمد امين – الى ولدي – 78، 79 .
- 20- احمد رامي – رباعيات الخيام – 21 .
- 21- م.ن – 28.
- 22- السمرقندي – جهاز مقالة (المقالات الاربع في الكتابة والشعر والنجوم) 186.
- 23- الزركلي – الاعلام – 9: 130.
- 24- مجلة المعرفة الكويتية – عدد 2006.
- 25- محمد خلف الرشدان- مجلة الحوار المتمدن- البحرين- عدد 119.

- 26- ديوان ابي نواس- المقدمة ط وما بعدها .
27- م.ن - 7 .
28- م.ن - 28 .
29- ديوان الاعشى - 27 .
30- ديوان ابي محجن الثقفي - 48 .
31- ديوان ابي نواس - 9 .
32- طالب الحيدري - رباعيات عمر الخيام - 13 .
33- م.ن - 11 .
34- الزهاوي - رباعيات الخيام - 10 .
35- م.ن - 9 .
36- احمد حامد الصّراف- عمر الخيام - 179 .
37- م.ن - 179 .
38- م.ن - 85 .
39- م.ن - 86 .
40- م.ن - 81 .
41- ن.م - 185 .
42- م.ن - 185 .
43- عبد الحق فاضل - ثورة الخيام - 348 .
44- م.ن - 349 .
45- م.ن - 160 .
46- م.ن - 349 .